

## المحاضرة السادسة

### خصائص الثقافة

من التعريفات المختلفة التي وضعها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا لمفهوم الثقافة، ومن المناقشات العلمية التي دارت حول هذه التعريفات. يمكن أن نستدل على أن الثقافة لها خصائص كثيرة متنوعة

#### لعل أهم هذه الخصائص:

(أ) على الرغم من أن الثقافة تعد ظاهرة اجتماعية توجد في جميع المجتمعات الإنسانية، إلا أن لكل مجتمع ثقافته الفريدة التي توضح طريقته في الحياة. ولفهم الثقافات يجب أن ندرك أن هناك نسبية ثقافية ويجب رؤية الثقافات في ضوء قيمها ومعاييرها وبمصطلحاتها أكثر من رؤيتها بمصطلحاتنا.

ويؤدي الفشل في القيام بهذه الوظيفة إلى الحكم على الآخرين من منظور نسقنا الثقافي، وتقييم الثقافات بمصطلحاتنا التي لا تتفق مع هذه الثقافات وحدث تلك الظاهرة التي يطلق عليها التعصب السلالي. والتي تجعلنا نرى الثقافات الأخرى على أنها تشغل مكانة أقل من المكانة التي تشغلها ثقافتنا.

(ب) تتميز الثقافة بالاستمرار فلسمات الثقافية قدرة كبيرة على الانتقال عبر الزمن. بل إن كثيرا من هذه الملامح والسمات التي تتمثل بوجه خاص في العادات والتقاليد والعقائد والخرافات والأساطير تحتفظ بكيانها لعدة أجيال لا لشيء إلا أنها وجدت في وقت من الأوقات في المجتمع، فتظل موجودة حتى بعد أن يزول السبب الذي أدى إلى ظهورها في أول الأمر. وقد يتعرض المجتمع كله لبعض عوامل التغير التي تبديل الظروف العامة التقليدية ومع ذلك تفلح بعض هذه السمات في البقاء والاستمرار مع احتفاظها بصورتها الأصلية.

ونجد أن انتقال الثقافة عبر الزمن وبين الأجيال المختلفة من شأنه أن يؤدي إلى التراكم الثقافي الذي يساعد الأفراد على التكيف مع البيئة فالثقافة تساعد الأفراد الذين يعيشون في فترة زمنية معينة أو في مكان معين، على أن يتكيفوا مع مشكلاتهم باستخدام الحلول التي يتم التوصل إليها في أوقات أو أماكن أخرى.

(ج) تعتمد الثقافة على وجود الرموز مثل اللغة، التي تعد من أهم هذه الرموز التي اخترعها الإنسان. ويستطيع الإنسان أن يتعلم الثقافة وأن يكتسبها من خلال استخدامه لهذه الرموز. وتعد اللغة هي الأداة الجوهرية التي نستخدمها في التقاط المعلومات حول الظواهر الثقافية المختلفة، وهي الأداة الرئيسية في تنمية الثقافة. وعن طريق مساعدة اللغة، يستطيع الإنسان أن يؤدي وظيفته داخل المجتمع، ويتمكن من تطبيق خبراته المختلفة في حل المشكلات التي تواجهه.

(د) أن الثقافة يتم تعلمها، بمعنى أنها مكتسبة. إذ أن الإنسان يكتسب عناصر الثقافة بالتعليم من المجتمع الذي يعيش فيه. بالإضافة إلى أنه يمكن نقل عناصر الثقافة عبر الأجيال المختلفة. وهذا ما يميز الإنسان عن الحيوان. وتتميز الثقافة بتمايزها واستقلالها عن الأفراد الذين يحملونها ويمارسونها في حياتهم اليومية.

ونجد أن العلماء الذين تعرضوا لمشكلة تعريف الثقافة يعطون أهمية كبيرة لموضوع التعليم أو الاكتساب ويبعدون عنها بالتالي كل ما هو غريزي أو فطري أو موروث بيولوجيا. وعلى ذلك فإن معظم التعريفات تؤكد أن الثقافة هي حصيلة العمل والاختراع والابتكار الاجتماعي، أو أنها حصيلة النشاط البشري، وأن وجودها بذلك غير مرتبط بوجود الأفراد من حيث هم أفراد.

وحينما يتكلم علماء الاجتماع عن ثقافة شعب من الشعوب فإنهم يقصدون على العموم طرائق المعيشة وأنماط الحياة وقواعد العرف والتقاليد والفنون والتكنولوجيا السائدة في ذلك المجتمع والتي يكتسبها أعضاؤه ويلتزمون بها في سلوكهم وفي حياتهم. وغالبا ما يميل الشخص العادي إلى الاعتقاد بأنه يرث العادات السائدة في مجتمعه، لأنه وجدها كذلك منذ نشأته وسبق أن كانت سائدة في عصر آباءه ولكن الأدلة كثيرة على أن عادات الجنس البشري وما يتفرع منها كلها أمور مكتسبة.

(هـ) أن الثقافة نسق، بمعنى أنها كل معقد، تتكون من ثلاثة قطاعات أو وحدات أو جوانب أساسية على النحو التالي:

**١- الجوانب الإدراكية:** وتشمل نسق المعرفة الذي يتدرج من المعتقدات إلى التكنولوجيا. وعلى سبيل المثال، عن طريق هذا الجانب من الثقافة نتمكن من معرفة طريقة استخدام آلة معينة في الإنتاج.

**٢- الجوانب المادية:** وتشمل الأدوات والآلات واللعب والسيارات وغيرها من الأشياء المادية التي تستخدم في تشكيل وتغيير البيئة.

**٣- الجوانب المعيارية:** وتتضمن المعايير أو القواعد التي تنظم السلوك. كما تتضمن القيم أو الأفكار النهائية المجردة حول ما هو صواب وما هو خطأ. بالإضافة إلى أنها تتضمن الجزاءات أي المكافآت التي تطبق بطريقة رسمية أو غير رسمية لفرض الامتثال للمعايير ولضبط السلوك المنحرف.

وتعد الثقافة كل معقد إلى أبعد حدود التعقيد نظرا لاشتمالها على عدد كبير جدا من السمات والملامح والعناصر التي حاولت بعض التعريفات أن تذكر جانبها منها كما هو الحال في مثلا، ويرجع ذلك التعقيد إلى حد كبير إلى تراكم التراث الاجتماعي تعريف (تايلور) خلال عصور طويلة من الزمن وكذلك استعارة كثير من السمات الثقافية من خارج المجتمع نفسه.

**" العموميات للقراء فقط غير مطالبين بها في الاختبار "**

ويبدو تعقد الثقافة، عندما نحلل ثقافة المجتمع. فعلى الرغم من أن المجتمع كله تسوده ثقافة واحدة ذات طابع موحد فليس من الضروري بحال أن توجد كل السمات التي تؤلف تلك الثقافة الموحدة، في كل قطاعات ذلك المجتمع. بل كثيرا ما يقتصر وجود بعضها على قطاع منها أو على مجتمع محلي معين بالذات دون بقية القطاعات أو المجتمعات المحلية التي تؤلفه.

والمعروف أن الذي يعطي الثقافة طابعها المميز ومقوماتها الخاصة هو وجود طائفة من السمات الرئيسية العامة التي تسود المجتمع كله وتفرض نفسها عليه والتي تعرف

باسم العموميات. وتتمثل هذه العموميات الثقافية في وحدة المشاعر ووحدة التقاليد والعادات والممارسات التي يشترك فيها كل أعضاء المجتمع، كالشعائر والمعتقدات الدينية واللغة وما إليها من السمات التي تعتبر أسسا جوهرية في تكوين المجتمع، والتي تحرص الجماعة عليها أشد الحرص وتعاقب على الخروج عليها.

ومع ذلك فإن هذا لا يمنع من أن توجد في كل قطاع من قطاعات المجتمع أو في كل جماعة محلية فيه، ثقافته الجزئية الخاصة. فعلى الرغم من وحدة السمات الثقافية الأساسية أو العموميات، فقد ينفرد الرجال ببعض قواعد السلوك وبعض الممارسات من دون النساء، كما قد يكون للمتزوجين أو الآباء عادات اجتماعية تميزهم عن العزاب وعن الأبناء.

وإذا كانت العموميات هي التي تعطي المجتمع وحدته الثقافية وتعبّر في نفس الوقت عن تلك الوحدة، وبذلك تعتبر عاملا من عوامل التكامل والتماسك في المجتمع، فإن الخصوصيات تؤدي إلى ظهور التمايز والتفاوت داخل نطاق المجتمع، دون أن يتعارض ذلك مع التجانس الثقافي العام. والواقع أن التجانس الثقافي يتوقف إلى حد كبير على مدى التناسب بين العموميات والخصوصيات، بمعنى أنه كلما زادت العموميات ظهر المجتمع كوحدة ثقافية متجانسة، كما هو الشأن في المجتمعات الصغيرة والمجتمعات شبه المنعزلة. ولكن هذا لا يمنع من القول أن العموميات أقل في العدد دائما من الخصوصيات رغم أنها تسود المجتمع كله.

وقد توحى كلمة العموميات بأن السمة الثقافية العامة تمارس بحذافيرها في كل المجتمع وتفرض نفسها على جميع أفرادها بغير استثناء وهو أمر غير صحيح تماما. فالموقف الواحد كثيرا ما يمكن معالجته بطرق مختلفة وبأساليب ثقافية متنوعة. فإذا كان طهي اللحم مثلا يعد سمة ثقافية عامة في المجتمع، فإن ذلك لا يستلزم بالضرورة طهيه بطريقة معينة بالذات، بل إن ذلك قد يتخذ أشكالا عديدة تختلف من شخص لآخر، بل ومن وقت لآخر بالنسبة للشخص الواحد. أي أنه يمكن التمييز في كل سمة من هذه السمات العمومية بين عدد من البدائل أو الأنماط المختلفة التي يمكن تطبيقها في الموقف الواحد.